كلية الأدب والفنون.

جامعة أحمد بن بلّة وهران

الأستاذ: معطى الله محمد الأمين.

مقياس: مدخل إلى الآداب العالمية.

محاضرة01: الأدب العالمي مفاهيم ومصطلحات.

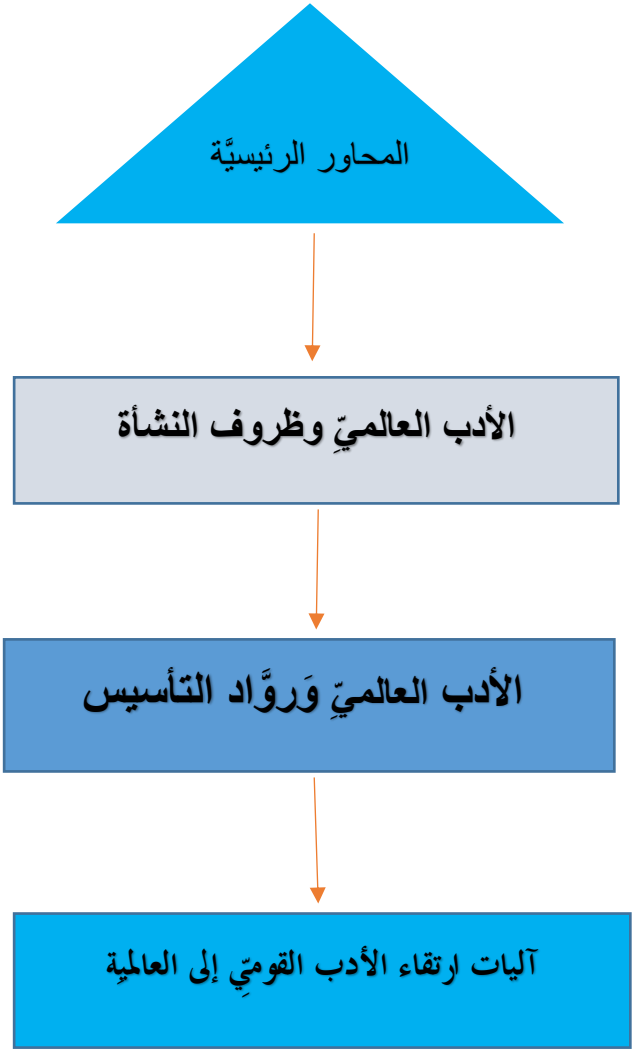

تمهيد:

لاشكَّ أنَّ الأدب هو المرآةُ العاكسةِ لشعوبِ العالمِ حيثُ تتبدَّى خصائصها الاجتماعيةِ، منزعها الثقافيّ، نمطها السلوكيّ، رؤيتها التاريخية، ارتقاؤها الحضاريّ في شكل بُنى لغوية يكسوها السَّرد بشكلهِ الإيقاعي السريع، والخيال الخصب ورونق الأسلوب كلُّها مؤهلات تستهدفُ بناء أفق ابداعيّ خاص يستوعب كل تجارب الشعوب، ويختزل ذاكرتَها الثقافيَّة ويقفُ على أهم محطاتِها التاريخيَّة ومن ثم يعمل على تسويقها إلى العالم برمَّتِهِ وهذا ارتضاء بناء رابطة إنسانية جمعاء يكون روحها الأدب.

الأدب العالميّ وظروف النشأةِ

وفكرة الأدب العالمي ترجعُ الأديب الألماني غوته {1749-1832} أثناء حديثهِ عن انتشار الأعمال الأدبية في أوروبا بما في ذلك الآداب الوافدةِ من خارج القارةِ وكيفيةِ استقبالِها، ونرى في مجملِ حواراتِ الأديب الألماني إعجابًا منقطع النظير بالرواياتِ الصينية والمتعةِ المستخلصةِ من قراءتِها، وكذا الدهشة التي تصنعها الأشعار العربية والفارسية والصربية، من هنا ظهرت تباشير جديدة من الأديب الألماني حول صعود مدِّ الأدب العالمي كبديل للآدابِ القومية برؤيتها الضيقة وثقافتها المختزلةِ، وهذه مقولته التي تتبنى هذهِ الرؤيةِ البديلةِ:

"إنَّ الأدب القوميّ لا معنى لهُ حاليًا، فحقبة الأدب العالمي قريبةٌ ويجبُ أن يسعَى كلُّ واحدٍ منا لأن يُسرِّعَ من اقترابِها".

ويلخِّص النَّاقد حسام الخطيب مصطلح الأدب العالميّ بقولهِ:

هو ارتقاءُ أدب مَا كليًّا أو جزئيًّا إلى مستوى الاعترافِ الدوليّ بعظمتهِ وفائدتهِ خارج حدود لغتهِ أو منطقتهِ والإقبال على ترجمتهِ ودراستهِ بحيثُ يكون عاملا فاعلًا في تشكيلِ المناخ الأدبي العالميّ لمرحلةٍ من المراحلِ أو على مدى العصورِ.

وعلى الدارس إجلاء الفروقِ بين المصطلحينِ قبل خوضهِ مغامرةَ الاطلاع على آدابِ الشعوبِ العالميةِ:

أ: **الأدب العالميّ**: هي روائع الآداب العالميةِ الخالدةِ التي مازالت تحيا بين الشعوب على اختلافِ ألوانِها وثقافاتِها وهذا بسببِ ما تحوزه تلك النصوص من معانٍ ساميةٍ تقتدرُ على مجابهةِ تغير الأزمانِ، ولغةٍ سرديةٍ ماتعة ليست بالمتعالية ولا بالخفيضةِ، فهي تمتلكُ أداة التوغل في رحابِ الذاتِ الإنسانية دون حاجتِها إلى التَّقعر البلاغيّ والاسرافِ في استخدامِ المحسناتِ البديعيةِ والاستعارات البيانية.

ب: عالمية الأدب: هو مصطلح منتحلٌ من إيديولوجياتٍ فلسفية ترتبط بالحداثةِ، وهذا من خلالِ العملِ على عولمةِ الأدب أي تقريبهُ من المبنى السياسي والاقتصادي العالميّ، حيثُ يؤطر النص الأدبيّ في قالبٍ واحدٍ متماثلٍ تديرهُ قواعد شكلية ونحوية ودلالية محددة سلفًا أي قبل نشوء العمل الأدبي ذاتِهِ.

ولن ترتقي الآداب القومية إلى العالمية مالم تستطع الحصول على بعض الميزاتِ النقدية والخصائص الشكلية والدَّلالية والتي بالإمكانِ أن نجملها فيما يأتِيّ:

1/ الدَّعوةِ إلى السلامِ ونبذِ الحروبِ والنزاعاتِ:

ينبغي أن نسلط الضوء في هذا السياق على دور الأدب في تجفيف مناطقِ الصراعِ والقضاء على كلِّ أشكالِ النزاعِ السياسيّ والاثني والمذهبيّ، فهو الخطابُ الأقدرُ على تصويب أفعال البشر العنيفةِ والقضاء على الخلافاتِ وهذا نظيرَ رسالاتهِ الجمالية، وغايتهِ الإنسانيةِ التي لا تعضد بالإيديولوجيا المتطرفةِ والأفكار الإقصائية.

فمثلا الروائي الفرنسي {1783 – 1842} الذي عرف بشدةِ بأسهِ وقوةِ التحامهِ لما كان جنديًّا في صفوفِ الإمبراطور نابليون بونابارت، نجدهُ قد ندمَ بعدئذٍ عن هذهِ التصرفاتِ الهمجيةِ، خاصة في رواياتِهِ "**الأحمر والأسود**" أين أظهر سخريةً وتهكما من مشاهد الحرب العبثية، وجنوح الدول الأوربية نحو التسليح المفرط والجنوحِ نحو إعداد الجيوشِ الضخمةِ، والانفاقِ الجنوني في سبيلِ صيانةِ المعدات العسكريةِ واللوازمِ الحربية الفتاكةِ، فهي في النهايةِ المطافِ لن تنتج إلا المزيد من الصورِ المأساويةِ السَّوداءِ.

كما خصص الأديب الفرنسيّ فيكتور هيغو {1802-1885} في روايتهِ **البؤساء** مساحة معتبرة للحديثِ عن مخرجاتِ الحروبِ الدائرةِ بين الدول الأوروبية كالحرب الفرنسيةِ الروسيةِ وما نجم عنها من فظائع إنسانية معتبِرًا أنَّ الحربَ ماهيَ إلا أداة قمعٍ وفتكٍ يُديرها سماسرة منتفعون من حطامها ديانتهم الشر وازدراء الحياةِ الهادئةِ.

وعليهِ فإن زحف الأدب لخارجِ حدودهِ القوميةِ مرهون بمشروعيةِ خطابهِ النابعِ من رؤية إنسانية سليمةِ ترمي افتعال دلالاتِ السلامِ وشجبِ شعاراتِ الحروبِ أينما وجدت فالحربِ ما هي إلا آلة لصناعة البُؤسِ.

مثال تطبيقي: من رواية الحرب والسلامِ للأديب الروسي نيكولا تولستوي {1828-1910}

الفصل التاسع عشر:

قال نابليون وهو يرى أحد القناصة الروسيين ملقًى على الأرضِ ووجههُ إلى الأسفلِ مسودٍّ وأحد ذراعيهِ ممتدَّة: إنَّه من أجملِ الرجالِ!

الأمير أندريهِ كانت أول فكرةٍ واتَتهُ عند يقظتِهِ هي: أينَ تلكَ السماءُ العميقةِ البعيدةِ التي لم أكن أعرفها من قبل والتي اكتشفتها.

يقدم لنا الأديب الروسي مفارقة عجيبةٍ في متنِ الروايةِ بينِ شخصية نابليون التي تهوى التلذذ بمنظرِ جُثثِ القناصةِ الروسِ وهي ملقاة في الأرضِ والسخريةِ من شكلهم المشوَّهِ، وبينَ الأمير الروسيّ الأمير أندريهِ وهو يحتضرُ بعد أن أنهكتهُ الجراحُ وفي ذلك تتجلَّى عمقِ الصورةِ حيثُ تتعارضُ عاطفة المنتصر مع عاطفةِ المنهزم.

2/ فاعليةُ الترجمةِ:

الترجمة فعلٌ حضاري يبتغيّ نقل الآدابِ القوميةِ إلى العالميةِ من خلالِ توسيعِ مجالاتِ انتشارها بلغاتٍ مختلفةٍ وبرؤى فنيَّة تتواءمُ مع خصائصِ الشعوبِ التي تستهدف تلقي تلك الآدابِ.

فالترجمة هي نشاطٌ واعٍ يتضمَّنُ عملية حمل شيء عبر الحاجز اللغويّ والثقافي كأن ننقلَ رواية مشرقية إلى العالم الغربيّ لإحداثِ جسر إبداعيّ به يستنطقُ الغربُ المؤثراتِ الشرقية الواردةِ في الروايةِ.

لقد فجرت الترجمة أولى مظاهر استيراد الفنون والعلومِ والآدابِ من ضفةٍ إلى ضفةٍ أخرى، كما فعلهُ العربِ خلال القرونِ الهجريةِ الألى حيثُ ترجموا كتابي أريسطو فن الشعر وفن الخطابةِ وهذا أملا في التعرف على المقاييس النقدية والقواعد الكتابية الواردةِ في الكتابينِ لترقيةِ الانتاجِ الأدبي العربيّ والانفتاحِ على أجناسٍ أدبية أخرى.

كما أسَّسوا مدارسَ خاصة تتبنى ترجمة عيونِ الأدبِ والفكر من حضاراتِ اليونانِ والفرسِ والهند كمدرسةِ إسحاقِ بن حنينِ {215 هـ- 298هـ} التي تضلَّعت بإصدار أحدثِ الكتبِ الطبيةِ والكيميائيةِ والفلسفيةِ تلبيةً لاحتياجاتِ الطلبةِ والعلماءِ في الأمصارِ العربيةِ.

وكانَ الجاحظُ {159هـ-255هـ} من صفوةِ النقدةِ العربِ الذين كاشفوا فعل الترجمةِ ببعديهِ النظري والتطبيقيّ، ووضعوا القواعد المنهجيةِ التي تضبط عمل المترجم:

لابدَّ للترجمان من أن يكون بيانُه في نفسِ الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفَة، وينبغي أن يكون أعلمَ الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواءً وغايةً.

هنا يلحُّ الجاحظ على نقطةٍ مهمة وهي أن يكون المترجم متخصصا في المعرفةِ التي يريد نقلها من اللغة الأصلِ إلى اللغةِ الهدفِ وهذا حتى يُحافظ على المعنى الأصلي ويقتدرَ على صونِ الضلالِ الثقافيةِ من التأويلاتِ الخاطئةِ.

هكذا تتم عمليةِ ارتقاء النص الأدبي من صيغتهِ المحليَّةِ إلى آفاقهِ العالميةِ بفضلِ رافد الترجمةِ فهي تنهج دومًا طريق التكامل والتفاعلِ لا الوحدةِ والانعزالِ.

مثال تطبيقي عن فعل الترجمةِ القديم عند العرب: كاختلافهم في الثنائية الواردةِ في كتاب أريسطو: الكوميديا/ التراجيديا، كون العرب لم يكونوا على درايةٍ بفن المسرحِ لذلكَ نجد ثلاث ترجمات مختلفةٍ لهذهِ الثنائيةِ:

أبو بشر متى بن يونس ← مدح/ هجاء.

حازم القرطاجنيّ ← جدُّ/ الهزل.

ابن سينا ← كموذيا/ تراجيذيا.

تبدو ترجمة حازم القرطاجنيّ هي الأصوب وهذا بسبب توافقها الدَّلاليّ مع روح الثنائيةِ الإغريقية خاصة في تفاصيلها النقديةِ ذلكَ أن الجامع بينهما هو بيانِ التوازيّ الذي يؤطر المشهد المسرحيّ عمومًا والتمثيلياتِ الشعريةِ.

لعلَّ من خصوصيةِ الترجمةِ هو إضفاءِ طابعِ العالميةِ على شتى الرموز الأدبيةِ والشخصياتِ الروائيةِ، فقد صار القارئ يربط كل قيمةٍ كانت سلبية أم إيجابيَّةٍ بما يتوافق مع شخصياتٍ رسختها الترجمة في المخيالِ الجماعيّ

ومثالنا على ذلكَ قولنا:

-بخيل **كشخصيةِ هرباغون** في مسرحية البخيل لموليير.

- خيالي طوباوي **كشخصية دون كيشوت** للروائي الاسباني سرفانتيس.

- متلقب شهوانيّ **كشخصية مدام بوفاري** للروائيّ الفرنسي فلوبير.

- محقق مدقِّق في تفاصيل الأشياء **كشخصية شرلوك هوملز** في القصص البوليسية لسير آرثر.

-وقح استبداديّ **كشخصية نابليون** في روايةِ مزرعةِ الحيوانِ للروائي البريطاني جورج أورويل.

3/ المشترك الإنسانيّ

إنَّ الأدبَ الرفيعَ هو ذلكَ الذي يقتدرُ على مغازلةِ المشاعرِ الإنسانيةِ ومن ثمَّ يبعثها في مرانٍ سرديّ ولغويّ يحيلُ إلى معاناة النفس البشريةِ وهي ترزحُ تحتَ خطِّ الفقرِ، مرارةَ الفقدانِ، تكلفة الحرمانِ، فاتورة التهميشِ.

فلو تدبَّرنا في سرِّ تفوق الأدب الروسيّ في مطلعِ القرنِ التاسعِ عشر لتينَ لنا عمق تحليلهِ النفسيّ للشخصيات المتصارعةِ في متنِ النص الأدبيّ، وكذا تمتُّعهِ بحسٍ فنيٍّ نادر بهِ يستطيعُ ربط المشاعر الإنسانيَّةِ المتناقضة ودمجها في سياقٍ سردي متآلفٍ يبعثُ على التفاعلِ والالتِحامِ.

بمعنى أنَّ العملِ الأدبيّ المتفوق هو القادر على تشريح ما يختلجُ الإنسانِ من مشاعر عاطفية متصارعةٍ تسكنُ وجدانَهُ.

كما أنَّ سرَّ ذيوع الأعمال الروائيةِ في العالمِ يعود إلى تطرُّقها لمسائل الخصامِ الأسريّ كعلاقةِ الأب بابنهِ، أو الأم بابنتِها وفق عقدٍ نفسية مستوحاةٍ من الميثولوجيا الإغريقيةِ كعقدةِ أوديب، عقدةِ ألكترا، عقدةُ نرسيسِ.

في مقالٍ نقدي شهير للعالمِ النمساويّ فرويد الصادر سنة 1928 والمعنون: بديستويفيسكي وجريمة قتلِ الأب" يؤكد الباحث أن تفوق بعض الأعمال المسرحيةِ والروائيةِ كمسرحيةِ هاملت لشكسبير، ورواية الإخوة كارامازوف يعوُد بالأساسِ إلى استحضارها لقصةِ قتلِ الأبِ المستوحاةِ من قصةِ أوديب الأسطورَّية.

وفي سياقٍ مشابهٍ يثنّي الباحث النمسلوي فرويد كثيرا على رواياتِ الأديب الروسي ديستويفسكيّ معتبرا إيَّاها من نفائسِ الأدب العالميّ كونها تعتمُد على أسلوبٍ إبداعي نادر في توصيفِ نوازع البشر العاطفية وتحليل أحوالِها الباطنية، يقول فرويد:

" ديتستويفسكي معلّم كبيٌر في علمِ النفسِ، لا أكادُ أنتهيّ من بحثٍ في مجالِ النفسِ الإنسانية حتى أجدُه قد تناولَه قبليّ في مؤلفاتِه".

وهذا إقرار صريحٌ بتفرد الأديب الروسي وعبقريتِه التي من النادر أن تتكرر في ساحةِ الأدبِ العالميّ.

4/ القدرة على الترويجِ للثقافةِ المحلية.

يمتلكُ الأدب مخزونا هائلا من العوالمِ السردية، والأبنية الشعرية، والمقاطع المسرحية التي تختص بمكاشفةِ أحوالِ المدن التاريخية، تفاصيل الحياة بمذاقها الشعبيّ الفريد {عادات يومية، فولكلور جماعيّ، أعياد دينية، ومناسَبات اجتماعية}، والأجمل في المسألةِ أن تسافر تلك الخصائص المحلية المطبوعةِ في النص الإبداعي إلى أقاليم وجغرافيات عديدةٍ فرواية موسم الهجرةِ إلى الشمالِ للأديب السوداني الطيب صالح تحدّثنا عن مسار شخصية مصطفى سعيد وتفاصيل سفرياتِه من حياةِ الريفِ إلى مدينةِ القاهرةِ التي درسَ بها وصولا لعاصمةِ الضباب لندن.

كما يُشاهد القارئ في روايةِ ميرامار لنجيب محفوظ لقطاتٍ من يوميات الريفِ المصري والتسُّلط الذكوري من خلالِ إخضاعِه للأنثى داخل حيز ضيق لا يكادُ يتجاوُز سقفَ المنزل مثل يومياتِ شخصية الفتاة زهرةِ المشبعةِ بالإكراهِ والتعنيفِ الأسريّ، لذاك لا تلبثُ الفتاةُ أن تفرَّ من بطشِ عائلتها وترتمي في أحضانِ سحرِ مدينةِ الإسكندريةِ وهناك يتُّم استغلالُها بأبشعِ الطرق.

أما في الأدبِ العالميّ فتحتفي رواياتُ الأديب الإيرلنديّ **جيمس جويس** بعوالم العاصمةِ الإيرلنديةِ **دبلن للدرجةِ** جعلها المعبر الرئيس نحو مشاهدِه السرديةِ ولمركز الذي تتكاثفُ حولُه البنياتُ الحكائيُة حتى قيل أنَّ باستطاعة مهندس بارع كانَ قد قرأ رواياتِ جيمس جويس أن يُشيّد دبلن ثانية حتى وإن لم يَرها في حياتِه الواقعية.

الحصيلة المعرفيّة

01	الأدب مرهون بالتطور والارتقاء
02	العالمية سمة الآداب المتفوقة
03	الانتقال من المرحلة القومية إلى العالمية يتوجَّب الالتزام بجملةٍ من الشروط الإبداعيَّة
04	الرواية أكثر الأجناسِ الأدبية انتشارا نظيرَ ما تحوزه من فنياتِ تعبيرية وسردية
05	الألماني غوته أول من بشَّر بالآداب العلمية كبديل للآدابِ القوميةِ

التقويم المعرفي

1/حاول ضبط المفاهيم التي تحدد مسار ارتقاء الآداب القومية للعالمية؟

2/حدِّد أهم المواضيع المتداولة في الآدابِ العالميةِ؟

3/ ماهيَ السياقات التاريخية الداعمة لنشأةِ الآداب العالميّة.